اللغـــة والكتـابـــة

ـ القسم الاول ـ

لهرى هويجر
ترجمة
د. فوزية العطية ـ رئيسة قسم الاجتماع
د. داود سلوم ـ رئيس قسم اللغة العربية
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

ان اللغة شيء مهم في نشاطنا اليومي وقد ينظر اليها بعضنا بانها ليست باكثر او اقل من عمل طبيعي لا ارادي كالتنفس او الرمش بالجفون .

ولو اعطينا المسألة شيئا من التفكير ، فيجب علينا ان نـــدرك ـ طبعا ـ ان اللغة ليست بعمل لا ارادي .

على الاطفال ان يتعلموا لغة الام وان التدريب الضروري قـد يستغرق وقتا طويلا لتعلمها . فاللغة ليست من الاشياء التي نرثها ، بل انها فن ينحدر من جيل الى جيل بالتعلم الشامل . ومـن الصعب ان ندرك الدور المهم الهائل الذي تلعبه اللغة في سلوكنا الاجتماعي . فما هو شكل المجتمع الذي لا لغة له ؟ سيكون دون شك مجتمعا لا يعرف الكتابة ولا أية وسيلة اخرى للتفاهم بالكلمات ، لان كل ذلك يتعلق بلغة الكلام وستكون لذلك وسائل تعلمنا محدودة الى حـد كبير . وسنكون مضطرين للتعلم بعمل الاشياء او بملاحظة الآخرين يعملون كما تفعل الحيوانات . وسيختفي لذلك التاريخ فبدون اللغة لن تكون في استطاعتنا اعادة خلق التجارب الماضية وايصالهـا الى الآخرين . وستكون كذلك بدون وسائل للتعبير عن ارائنا وافكـارنا للآخرين

ولن يكون في مقدورنا مشاركة الناس الآخرين نشاطهم العقلي • وفي الحقيقة سيكون من المحتمل باننا لن نفكر ابدا •

ان عددا من علماء النفس يعتقدون بان الفكرة تحتاج الى استعمال اللغة وان عملية التفكير هي عبارة عن نوع من الكلام عن الاشياء مع انفسنا •

ان انعدام اللغة في المجتمع سيجعله يعجز عن المشاركة في ابسط انواع النشاط الجماعية لان الفرد او مجموع الافراد لن تكون لديهم طريقة للتخطيط لمثل هذا النشاط او شرحه للآخرين او توجيه اعمال المشاركين في النشاط الجماعي نحو الهدف المشترك وان كل فرد سيكون الى حد كبير معتمدا على طاقته وقدرته الخاصة ما دام الفرد يحتاج الى الوسائل لضمان معونة الآخرين •

والاهم من ذلك كله فان المجتمع الذي تعوزه اللغة لن تكون لديه الوسائل التي تضمن استمرار السلوك والتعلم الضروريين لخلق الحضارة •

فالمجتمع الانساني الذي لا حضارة له يمكن ان ينخفض الى مستوى مجتمعات القردة الراقية المعاصرة • فالقردة تملك بناء جسديا مشابها لبناء اجسادنا جدا ، وانها تتعلم مباشرة من التجربة ومن ملاحظة وتقليد اعمال الآخرين •

وان عددا من المجربين قد اظهروا بان القردة لا تتعلم استعمال الادوات فقط بل من الممكن لها ان تبتكرها ومع ذلك وبالرغم من الحقيقة التي تظهر تعلم القرد كفرد بسهولة وتظهر تقدم القردة الواضح في الحصول على المعرفة كمجموعة ، فان القردة كنوع خاص لم تتمكن من خلق الحضارة • ويوجد سببان لذلك : الاول : الحاجة الى

اللغة فأن القردة لاتملك وسيلة للاستمرار والتعبير بالكلمة والفكرة على تجاربها المتقطعة في استعمال الادوات والاساليب • فاذا ما انتهى القرد من حل مشكلة فان المعرفة التي حصل عليها من خبرته تبقى ثابتة وقد يتذكر الحل اذا ما قامت مشكلة من نفس النوع ولكنه خلال ذلك لا يفيد ن معرفته لابتكار الوسائل التي يستخدمها في المشاكل الاخرى •

ما الانسان فانه يصنع ذلك • فان تجاربه الظاهرة ذات المشاكل العملية • تشبه تجارب القردة من حيث كونها متصلة وواضحة وبسبب كون الانسان يمتلك اللغة فانه يستطيع الاستمرار على نشاطه في حل مشاكله الى مدى ابعد من مدى التجربة المادية ولذلك فانه يطور من خلال الفكرة والنقاش استعمالا جديدا لمعرفته ووسائل محسنة لحل المشاكل • وبايجاز ، فان تجارب الانسان مستمرة بسبب اللغة وانها غير منقطعة كما هي الحال بين القردة ولذلك يظهر عليها التطور السريع• الثاني : ان تملك الانسان اللغة جعله مقتدرا على مشاركة تجارب وافكار ابناء جنسه وجعله مقتدرا على اعادة خلق تجاربه الخاصة لمنفعتهم • اما معرفة القرد التي حصل عليها من خلال التجربة والملاحظة فانها ملكه فقط الا اذا استطاع ان يوضعها بواسطة الاشارة المادية ليستفيد منها قرد آخر • ومهما كان ماهرا في استعمال الادوات والاساليب فان صغاره سيضطرون الى ان يبدأوا معرفتهم كما بدأها هو من خلال التجربة والملاحظة فان القرد الماهر لا يستطيع ان ينقل معرفته كي يمكن الآخرين بعده من الاضافة اليها •

ان الحضارة عند الانسان تكشف عن التقدم ، فان كل جيل يتسلم بواسطة الكلمة والتقليد كل المعرفة المتجمعة عن الاولين ثم

يضيف ابناء الجيل مشاركتهم التي حصلوا عليها بتجربتهم وملاحظاتهم ثم يسلمون ذلك الى الاجيال التالية • ان هذه الظاهرة التجميعية التي تميز الحضارات الانسانية من نوع المعرفـــة السائدة في المجتمعات الحيوانية قد اصبحت ممكنة بسبب اللغة •

قدم اللغـة :

ان دراسة بقايا هيكل الانسان والبقايا الحضارية اظهرت بان اول المخلوقات البشرية قد ظهرت قبل حوالي مليون سنة •

ان حضارة الانسان الاول كانت بسيطة وبدائيـة ، ولا نعرف الا جزءا بسيطا من حاجاتهم المتبقية كالادوات والمعدات المصنوعة من مواد خشنة تمكنت لخشونتها مقاومة كر الايام عليها • وبالرغم مـن ذلك فانها دليل قاطع بان هذه البقايا من حضارات الانســان تكشف عن استمرار حضاري خلال مرور الزمن •

وعندما ندرس فترات الحضارة التاريخية في اية منطقة من مناطق العالم ، يتكشف لنا تقدم بطيء ولكنه مستمر سواء اكان ذلك في عدد الادوات المصنوعة او في تعقيد صناعتها •

ان الانسان في الاجيال المتوالية لم يبدأ من جـديد في تشكيل حضارته في كل جيل بل بنى فوق الطرق التي اكتشفت في الماضي ثـم نقلها اليهم اسلافهم •

ان الحقيقة التي يظهرها تاريخ حضارة الانســان هي ان النمو المستمر النامي الذي استمر من البدايات الاولى حتى اليوم وهي ان الانسان يمتلك اللغة منذ ان امتلك الحضارة • لا شك ان اللغة قديمة قدم وسائله الحضارية انها بدأت مع بدء الحضارة ولا زالت متطورة باستمرار منذ ذلك الحين •

ان الاستنتاج حول الزمن الذي نشأت فيه اللغة ظهر قياسا من الملاحظات التي تسجل عن اللغات الحديثة . اولا : فمن الواضح ان جميع المجتمعات الانسانية قد تملكت لغة ما على طول خط معرفتنا بهم فليس لدينا جماعة من الناس في اي مكان في الحاضر او الماضي من الذين يفتقدون هذا الجانب الحضاري المهم .

ثانيا : علينا ان نلاحظ بان اللغات الحدية لغات كثيرةومختلفة جدا . وان العدد المضبوط للغات المتميزة التي يتكلم بها اليوم لا يمكن تقديره ولكننا نعرف انه يوجد بضعة آلاف منها .

ان بعض هذه اللغات تنتسب تاريخيا احداها للاخرى وهذا معناه ان هذه اللغات مشتقة من لسان قديم واحد . وان اللغات التي تكون هكذا في اشتقاقها يقال عنها بانها من عائلة او مجموعة لغوية واحدة ويوجد بضع مئات من هذه المجموعات في العالم اليوم .اغلب هذه المجموعات لا تظهر شيئا فيما بينها لاننا نفترض ان جميع العلائق التي تربطها بالاصل المشترك قد اختفت منذ زمن بعيد . وان عمومية اللغة والاختلاف المدهش في التعابير الحديثة يعني بان اللغة قديمة جدا .

وان دراسة اللغات المعروفة لعدة قرون ومن خلال الآثار المسجلة يكشف عن ان اللغة تتبدل ببطء نسبي ، ولذلك ومع ان اللغة الانكليزية والالمانية قد انفصلتا عن بعضهما منذ الفي عام تقريبا فانهما لا زالتا تحتفظان ببعض وجوه الشبه البارزة في المفردات والنحو وهذه كلها تشير الى الاصل المشترك . ولهذا فالاختلاف الكبير في اللغات الحديثة يجب ان يكون قد استغرق وقتا طويلا حتى وصل الى ما هو عليه .

ثالثا واخيرا فالبرهان على قدم اللغة يوجـــد في الحقيقة بـان اللغات المعروفة قديمها وحديثها لا يمكن ان تصنف بالنسبة لمستوى مراحل نموها • فانه لا توجد لغة بدائية ولا لغة راقية جدا اذا اخذنا بنظر الاعتبار خصائص بنائها • ولذلك فان جميع اللغات التي نعرفها لها نظام واضح من الاصوات الكلامية (الحروف) المميزة • وهـذه الاصوات محدودة في العدد يتميز كل صوت فيها عن الآخر وتوضع معا لتشكل كلمات او عبارات او جمل تبعا لقواعد راسخة ، وفي هذا المجال ليس من خلاف حقيقي بين لغات الشعوب التي تمتلك حضارة بسيطة وخشنة وبين لغات الشعوب الراقية جـــدا من سكان اوربا وامريكا •

ومثل ذلك ، فان كل الجماعات الانسانية بغض النظر عن خشونة حضارتهم فانهم يمتلكون مجموعة من الكلمات تكون كافيـــة في تفصيلها وسعتها لاستيعاب كل حاجة يمكن ان تستحدث ، وان اللغات تختلف طبعا في عدد مفرداتها ولكن هذا الخلاف انما هو خلاف حضاري وليس خلافا لغويا • فان لغة اي شعب يمتلك حضارة بسيطة وغـير متطورة نسبيا تمتلك عددا اقل من المفردات بالنسبة الى شعب يمتلك حضارة معقدة ومتطورة تطورا عاليا • ومن الملاحظ على كل حال بان مفردات اية مجموعة بشرية مهما كانت بسيطة في حضارتها يظهر عليها التوسع الذي لا ينتهي عند حد • وفي دخـول الادوات الجـديدة التي تكتشف او تستعار من امم اخرى فان المفردات تتزايد او تتبدل لتغطية الحاجات الجديدة المفروضة على اللغـــة • واخيرا ، فان كل اللغات تمتلك نظاما نحويا واضحا ومحددا • ويمكـن تعريف النحو باختصار بانه ترتيب ذو مدلول للاصوات او التراكيب الصوتية لانتاج

الكلمات او العبارات او الجمل • وان القواعد الواضحة التعريف التي تتحكم في مثل هذا النظام النحوي موجودة في جميع اللغات سواء اكانت اللغة المنطوقة للاقزام الاميين في غابات الكونغو او لغة الاقوام المتمدنة في اوربا الحديثة •

وان وجوه الشبه الاساسية تعني بالطبع ان اللغة كانت ظاهرة بشرية منذ زمن بعيد وانها تطورت على مستوى واحد بين جميع امم الارض ولم يبق اليوم اي اثر لتطور لغوي في مراحله المبكرة والبدائية•

اصل اللغة :

من الواضح ، ان لغة الكلام لا تترك اثرا من المورثات القديمة التي تميز تاريخ حضارة الانسان وان النصوص المكتوبة في اللغات البشرية بدأت قبل بضعة آلاف من السنين فقط • وقبل ذلك الوقت لم تمتلك المجموعات البشرية طريقة للكتابة • فمن المؤكد لهذا السبب باننا لا نمتلك اي شهادة مباشرة عن اصل اللغة او عن الفترة التاريخية الطويلة التي مرت بين نشأة اللغة وبين اول النصوص المكتوبة ولذلك فان مشكلة اصل اللغة لن تحل في معنى معرفة الظروف التي ظهرت بسببها اللغة او القدرة على تتبع تطورها بطريقة شرح احداث تاريخية ثابتة فان عددا من النظريات قد وضعت عن اصل اللغة ، وان اغلبها قد اعتمد على فرض اساس هو نظرية ظهور اللغة من الكلمات التي تنطق في حالة الالم والتعجب او من وضع كلمات تحاكي اصوات الاشياء •

فان النظريات التي تعتمد على اصوات الندبة والتعجب . Interjectional Theories: ترى ان هذه الاصوات والاصوات اللاارادية متشابهة في جميع اللغات الى حد كبير ومن اقدم مجموعة

كلمات استخدمها الانسان وهذا معناه ان كل الاشكال الاخرى يجب ان تكون قد اشتقت من هذه الكلمات بشكل او بآخر •

اما النظريات التي تعتمد على المحاكاة في نشوء اللغة Sound Imitative Theories فانها تنظر الى بعض الكلمات مثل ding dong, bow wow, meow, chco chco

وما شابه من الكلمات التي وضعها الانسان لمحاكاة صياح الحيوان او الضجيج وتعتبرها بدايات اللغة • ومن هذه المحاكاة الصوتية للاصوات التي التقى بها الانسان في بيئته فانه قد كون مئات من اللغات التي يتكلم بها الناس اليوم ، ان كلا الفرضين يفشلان في حل مشكلتنا ، لانهما يعجزان الى حد كبير عن الاعداد للصيغ اللغوية السليمة ، فان الاصوات اللاارادية او اهداف المحاكاة لا يمكن ان تعتبر من الاشكال اللغوية الصحيحة • فان الاصوات اللاارادية انما هي استجابات فردية للحافز القوي فان صيحة التعجب ليست نفس كلمة (آه) المكتوبة لان السابقة تمثل بعض الاستجابة نفسها ، ولا تمثل كلمة (آه) التقليدية الاستجابة الى التعجب •

ان جميع الرموز اللغوية مثل الكلمات انما هي تقليدية واختيارية وان معانيها يجب ان يتعلمها المتكلم بها ولا يوجد الانسان الذي يتعلم الصرخة اللاادارية ، فان الطفل قد يصرخ قبل ان يتعلم الكلام بفترة طويلة وان كلمات محاكاة الاصوات يجب ان تختلط كذلك بمحاولة تصوير الاصوات الخاصة ببيئة الانسان • فان كلمة مثل ding dong فانه تمثيل تقليدي لصوت الجرس ولن يكون دليلا على ذلك لاي انسان عدا متكلم الانكليزية التي تعلم ان يربط بين الصوت ding dong وصوت الجرس •

ولكي نفهم كيف ظهرت اللغات يجب ان نعرف كيف ان الانسان قد اوجدت عاداته الابتداعية والعرفية
Arbitrary and conventional habits
بالنسبة لربط احداث الكلام مع التجربة •

وان هذا لا يشرح بواسطة افتراض محاكاة الاصوات والتي تشير الى ان الانسان قد يسمي الاشياء والاحداث بالضوضاء التي تثيرها وتكون هذه الاسماء في بعض المناسبات جزءا من اللغة حقا • ويتبع هذا ، ان النظرية المفيدة عن اصل اللغة يجب ان تعتمد على تحليل اكثر دقة وعلى دراسة اللغات الحديثة •

ان مثل هذه الدراسات التي نقترحها تكشف عن ان عناصر الكلام مثل الالفاظ والعبارات والجمل انما هي رموز ابتداعية ، ونعني بهذا ان هذه الرموز نفسها لا تكون جزءا من الحقيقة او تجربة رمز لها بشيء ولذلك وعلى سبيل المثال فان تتابع اصوات الحروف المعينة في تكوين كلمة horse (حصان) لا يعني بالضرورة وجود علاقة بصنف او نوع الحيوان الذي رمز له بالكلمة ذاتها • وبكلمة موجزة فانه لا يوجد في كلمة horse ما يشبه بصنف الخيل وببساطة فان متكلم الانكليزية قد تعلم ان يقرن اصوات الحروف المكتوبة horse بصنف معين من الحيوانات كما تعلم ان يربط بين كلمة dog (كلب) او cat (قطة) مع اصناف اخرى مختلفة من الحيوان ، وان الحقيقة التي تظهر ان جميع الرموز اللغوية انما هي ابتداعية في الغالب يؤكد طابع اللغة الاجتماعي وان اللغات ترتبط دائما بجماعة من الناس (ظاهرة اجتماعية) ولا تعود اللغة الى شخص واحد • فان الشخص الواحد هو الذي يحصل على

لغته من لغة المجموعة التي يحيا معها • فاذا ما ابتعد كثيرا في كلامه عن افراد المجموعة فانه قد يخاطر في ان يساء فهمه او في الا يفهم • فان كلمة horse ليست بكلمة خاصة بشخص واحد من متكلمي اللغة الانكليزية بل انها كلمة يستعملها ويفهمها كل الذين يتكلمون اللغة الانكليزية وفي نفس المدلول •

ان وظيفة اللغة في المجتمعات الانسانية كانت ـ في الاصل ـ واسطة للاتصال والتعاون وان الفرد يستطيع بواسطة اللغة ان يعيد خلق تجاربه وان يشارك الآخرين بها بالاضافة الى قدرته على ان يوازن اعماله باعمال الآخرين • وبهذا تستطيع الجماعة ان تعمل معا في الواجبات التي يثقل حملها او تكون كثيرة التعقيد بالنسبة لفرد واحد منها • ولكي نضرب مثلا لشرح هذه النقطة ، دعونا نتخيل رجلا خرج للصيد وحده وقتل حيوانا كبيرا لا يستطيع حمله بمفرده فان هذا الرجل سوف يترك الحيوان الميت ويرجع الى مخيمه او قريته وانه سيخبر الآخرين بالذي صنعه ويحصل على معونتهم • وانهم سيرجعون معه الى الصيد ويساعدونه لسلخ الصيد ثم يقطعون لحمه ويحملونه الى مخيمهم • وفي خلال كل هذا فقد يتحمل احدهم المسؤوليه ويشير بـ « كلمات » الى الواجب الذي يجب ان ينفذه كل منهم كي تساعد اعمالهم المنفردة ولا تعطل اكمال المهمة كاملة •

ومقابلة لما وصفنا بما يشابه ذلك بين جماعة من الذئاب على سبيل الافتراض فاننا نجد مجموعة اجتماعية من الحيوانات ايضا ولكنها مجموعة لا لغة لها فاذا ما اصطاد احد الذئاب فانه سيأكل من صيده لوحده مقدار طاقته ولن يهتم او يقتدر على اخبار بقية القطيع بوليمته• فاذا ما جاءت اليه الذئاب في الوقت الذي كان يصطاد فيه او في الوقت

الذي كان يأكل منه فريسته فانهم يشاركونه ذلك دون دعوة وان كل ذئب سوف يأخذ بمقدار ما يستطيع واذا لم تكن هناك كفاية للجميع فان الضعاف من الذئاب لن تحصل على شيء وان عمل الذئاب في توزع اللحم سيكون فرديا وشخصيا وبدون اية موازنة او معاونة .

ومن المحتمل ان الحيوانات القديمة التي تطور عنها الانسان كانت تعيش في جماعات مشابهة لجماعة الحيوانات في عصرنا الحاضر وكان سلوكهم الاجتماعي متوازنا الى درجة بسيطة فقط وكان كل منهم يعمل لنفسه فقط ما عدا العناية بالصغار التي يجب ان يقوم بها الكبار وفي بعض المناسبات كانت الضرورة تضطرهم الى درجة من التعاون والتنظيم . وان جد الانسان البدائي لم يكن حيوانا ممتازا مقارنة بالحيوانات الكثيرة التي شاركته بيئته ولعله اضطر في الغالب الى الدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة القوية ولعله اكتشف في فترة مبكرة ان الدفاع يكون ابعد اثرا اذا ما اشترك فيه متعاونا مع اضرابه . وحين كثرت هذه المشروعات التي كان يتعاون بها فان هذه العادة قد نمت الى نوع من المشاركة تحت ظروف خاصة مثل صيد الحيوانات الضخمة التي يستعملها لطعامه . وان الذئاب نفسها قد تصيد مجتمعة وحين تصنع ذلك فانها توحد مجهودها في ذلك الى حد ما . وان تطور العمل المشترك لم يخلق وحدة اللغة على كل حال فهناك عدد من الحشرات ذات تعاون فعال ولكنها لا تستخدم اللغة ومع العلم ان التعاون بين هذه الحشرات انما يقوم على اسس مختلفة عن تلك التي تقوم بين الناس . فان الانسان لم يولد لدور مقدر في مجتمعه مثل بقية الحشرات . فعلى الانسان ان يتعلم على التكيف في السلوك تبعا لدوره في الجماعة الانسانية وان اللغة تعتبر وسيلة فعالة

لتعلم هذا التكيف .

كيف وفي اي شيء استخدم أجداد الانسان من الحيوانات اللغة كوسيلة في العمل المشترك فهذا شيء لن نعرفه . ولكننا يمكن ان نفترض واثقين بان جد الانسان البدائي كان يحدث الضجيج وربما الضجيج المصاحب للواجبات والغايات التي كان يقوم بها مشاركة ، وان هذا الضجيج اصبح تدرجيا يرمز لتلك الاعمال المتعددة التي يجمعها ذلك الواجب وعلى كل حال ، فانه يبدو من الاكيد بان اللغة قامت نتيجة لتعلم الانسان العمل معا لغاية مشتركة ومهما كانت الاسباب فان اجداد الانسان البدائيين قد اضطروا الى هذا النوع من التعلم وبهذا عثروا ــ دون الحيوانات الاخرى ــ على الآلة واللغة فهما اللذان يجعلان النشاط المشترك المنظم اكثر فعالية[1] .

ــ يتبع ــ

---

(١) ترجم البحث عن كتاب :
Man, culture and Society Chap.' x' P. 268.
Harry Hoijer والمقالة من كتابة :